تفسير سورة يسٓ

للأستاذ عبد الله كنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يس ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ④

اخْتُلِفَ فِي هَذَا اللَّفْظِ أَعْنِي (يَسٓ) وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ (ص) وَقِيلَ مَعْنَاهُ يَا إِنسَانُ، وَهُوَ كَذَلِكَ خِطَابٌ لَهُ (ص) وَقَوْلُهُ: **(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ)** هُوَ قَسَمٌ عَلَى صِدْقِ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ هُوَ قَوْلُهُ: (إِنَّكَ يَامُحَمَّدُ **(لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)** وَنَاهِيكَ بِهِ مِنْ قَسَمٍ لِلْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كِتَابِهِ الْعَزِيزِ. فَلَيْسَ بَعْدَهُ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى ثُبُوتِ رِسَالَتِهِ (ص) لَوْلَا الْجُحُودُ وَالْعِنَادُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْكُفَّارُ وَالْمُشْرِكُونَ، وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ جَارٍ مَجْرَى التَّأْكِيدِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَسَمِ وَإِنَّ وَاللَّامِ الدَّاخِلَةِ عَلَى الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ **(عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** أَيْ عَلَى مَنْهَجٍ قَوِيمٍ فَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ ثَانٍ لِإِنَّ، دَاخِلٌ فِي الْقَسَمِ.

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ⑤ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ⑥ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑦

يَعْنِي أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ **(تَنْزِيلٌ)** وَوَحْيٌ مِنَ اللَّهِ **(الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)** وَمِنْ رَحْمَتِهِ إِرْسَالُ الرُّسُلِ إِلَى عِبَادِهِ لِيَدُلُّوهُمْ عَلَى اللَّهِ وَالطَّرِيقِ الْمُوصِلِ إِلَى رِضَاهُ كَمَا قَالَ **(لِتُنْذِرَ)** أَيْ لِتُعْذِرَ وَتُعَلِّمَ **(قَوْمًا)** وَهُمُ الْعَرَبُ وَإِنْ كَانَ لَامَفْهُومَ لَهُ لِأَنَّ رِسَالَتَهُ (ص) عَامَّةٌ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ **(مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ)** يَعْنِي لَمْ يُبْعَثْ فِيهِمْ نَذِيرٌ قَبْلَكَ **(فَهُمْ غَافِلُونَ)** لِذَلِكَ فَمَا نَافِيَةٌ. وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مَا بِمَعْنَى الَّذِي أَي لِتُنْذِرَهُمْ بِالْأَمْرِ الَّذِي أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ بِهِ وَهُوَ الْبَعْثُ وَالْحِسَابُ عَلَى مَاقَدَّمُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِعْذَارًا وَإِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **«وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا»** وَيُرَادُ بِآبَائِهِمْ حِينَئِذٍ الْأَبْعَدُونَ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ إِبْرَاهِيمُ وَبَنُوهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ **(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ)** أَيْ وَجَبَ الْعَذَابُ **(عَلَى أَكْثَرِهِمْ)** لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ وَعُكُوفِهِمْ عَلَى الْأَصْنَامِ

وتغييرهم لشرع الله كما قال ، (فهم لا يؤمنون) بالله والرسل وما جاءوا به مما فيه صلاح معاشهم ومعادهم. فهي كالآية الأخرى التي تقول ، «**ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين**».

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⑧ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ⑨﴾

يعني أن الكفار لامتناعهم من الإيمان هم كمن جعل في عنقه غل يمنعه من الإلتفات فهو لا يرى ما حوله. والكلام على التشبيه (**والأغلال**) جمع غل وهو القيد الذي يجعل في العنق ويضم اليدين إليه، كما جاء في الآية الأخرى : «**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك**» تشنيعاً على البخيل الذي لا ينفق في سبيل الله مما آتاه الله (**فهي**) أي الأغلال (**إلى الأذقان**) جمع ذقن وهو منبت اللحية، وذلك أن الغل إذا كان واسعاً عريضاً وصل إلى الذقن فكان أشد على المغلول (**فهم مقمحون**) أي رافعوا رؤوسهم لا يستطيعون خفضها. شبههم في عدم الإذعان للإيمان بمن هذه حاله. (**وجعلنا من بين أيديهم سداً**) أي حاجزاً مانعاً لهم من الإيمان (**ومن خلفهم سداً**) كذلك حائلا بينهم وبين التفصي مما هم عليه من الكفر (**فأغشيناهم**) أي غطينا على أبصارهم. والمعنى كذلك على التمثيل (**فهم لا يبصرون**) سبيل الهدى ولا ينتفعون بأبصارهم.

والخلاصة أن الآية شبهت الكفار في امتناعهم من الإيمان والهدى بمن غلت يده في عنقه وعمي بصره، بجامع أن كلا ممنوع من الوصول إلى المقصود مع التلميح إلى ما يحصل لهم في الآخرة من الأغلال والسلاسل التي يقادون فيها إلى جهنم وبئس المصير. ومعلوم أن إسناد هذه الأفعال إلى الله عز وجل، على أساس

أَنَّهُ وَاهِبُ الْقُوَى وَالْقُدَرِ، وَإِلَّا فَالْمَسْؤُولِيَّةُ الْمُتَرَتِّبَةُ عَلَى التَّكْلِيفِ وَالْاخْتِيَارِ لَا تُعْفِي الْانْسَانَ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.

وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑩ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪

هذا إعلام من الله عز وجل لنبيه (ص) بما أطلع عليه من حال الكفار المصرين على تكذيبه، وهو أن إنذاره لهم وعدمه سواء في كونهم لا يومنون، كما قال (وسواء عليهم) أي في حقهم (أأنذرتهم) أي خوفتهم وحذرتهم من نتيجة الكفر (أم لم تنذرهم) فهم (لا يومنون) عنادا وكفرا (إنما تنذر) أي إنما ينفع إنذارك (من اتبع الذكر أي القران وما جاء به من الهدى والنور (وخشي الرحمن بالغيب) أي خافه عز وجل حيث لا يراه إلا هو فلم يعصه وإن كان خاليا (فبشره بمغفرة وأجر كريم) مغفرة لذنوبه وأجر حسن على أعماله الصالحة، وأعلاه الجنة والآية مبينة لفائدة الدعوة فهي تقيم الحجة على المخالفين وتبطل عذرهم وتهدي المومنين إلى سواء الطريق وتبشرهم بما لهم من حسن العاقبة والجزاء الأوفى.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ⑫

يقول تبارك وتعالى (إنا نحن نحيي الموتى) أي يوم القيامة، وهو إنذار للكفار الذين لا يومنون بالبعث فإذا علموا أنهم مبعوثون ومحاسبون على ما عملوا فما أحراهم أن يفيئوا ويرجعوا عن غيهم (ونكتب ما قدموا) من أعمال في حياتهم وذلك في صحفهم التي يوتونها يوم يبعثون للحساب بأيمانهم أو بشمائلهم

(وآثارهم) أي ما تركوه بعدهم من آثر سيىء أو حسن على حسب ما جاء في الحديث ، من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سَنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة (وكل شيء) مما هو كائن أو كان (أحصيناه) أي أثبتناه وضبطناه (في إمام مبين) أي كتاب هو بمثابة الإمام لسائر الكتب مبين لجميع الأمور، وهو اللوح المحفوظ وكل بالنصب بفعل يفسره أحصيناه على سبيل الاشتغال.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ⑬ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ⑭ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ⑮ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ⑯ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ⑰

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، (واضرب لهم مثلا) أي اذكر لقومك قصة شبيهة بحالهم على سبيل الإنذار (أصحاب القرية) أي إحدى القرى من غير تعيين، فال فيها للجنس (إذ جاءها المرسلون) من عنده تعالى وقيل إن القرية هي أنطاكية والرسل رسل عيسى ولا يصح (إذ أرسلنا إليهم إثنين) من الرسل (فكذبوهما فعززنا) أي قوينا الرسولين (بثالث فقالوا إنَّا إليكم مرسلون) من عند الله لتومنوا به وتتركوا عبادة الأصنام فقال لهم أصحاب القرية (إن أنتم) ما أنتم (إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء) على أحد أي من رسالة يبلغها إلى الناس وهذه هي شبهة المكذبين بإرسال الرسل كما قال تعالى في آية أخرى «ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا» إذ كانوا يعتقدون أن الرسالة لا تكون حقا إلا إذا أتى بها الملائكة. أو كانت لعموم الناس كما في قوله تعالى «وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة او نرى ربنا» ولهذا واجهوا رسل الله بقولهم (إن أنتم إلا تكذبون) فيما تزعمون (قالوا) أي الرسل

(ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين) أكدوا كونهم مرسلين من الله وأن ما عليهم هو البلاغ الواضح المبين لرسالتهم فإن استجابوا لها فازوا ونجوا وإلا حق عليهم العذاب.

قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ⑱ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ⑲

لم يؤثر هذا الحوار الهادئ في القوم شيئا. بل صمدوا عنادهم وجابهوا رسل الله بقولهم (إنا تطيرنا بكم) أي تشاءمنا بمجيئكم و (لئن لم تنتهوا) عن قولكم (لنرجمنكم) أي لنقتلنكم رجما بالحجارة (وليمسنكم) أي يصيبكم. (منا عذاب أليم) أي مؤلم (قالوا) أي الرسل (طائركم معكم) أي شؤمكم من أنفسكم (أئن ذكرتم) أي أتطيرتم بسبب أنكم ذكرتم وخوفتم من عذاب الله (بل أنتم قوم مسرفون) على أنفسكم ساعون في هلاكها، وقولهم هذا مثل قول قوم فرعون «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه، ألا إنما طائرهم عند الله».

وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ⑳ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ㉑ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ㉒ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ㉓ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ㉔ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ㉕ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ㉖ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ㉗

يخبر تعالى أنه لما اشتد الموقف بين أصحاب القرية ورسل الله (جاء رَجُل من

أقصى المدينة يسعى) أي يشتد عدوا لما علم بتكذيب القرية للرسل وهمهم بقتلهم وكان رجلا مومنا فقال (ياقوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجرا) على تبليغ رسالة الله إليكم (وهم مهتدون) شهادة لهم بأنهم على الحق وأن اتّباعهم واجب ولا شك أن القوم ارتابوا في الرجل وسألوه هل أنت على دينهم فأجاب (وما لي لا أعبد الذي فطرني) أي أوجدني من العدم يعني وأوجدكم (وإليه ترجعون) بعد الموت فيجازيكم بعملكم (أأتخذ من دونه آلهة) استفهام إنكاري موجه لقومه عسى أن يراجعوا صوابهم (إن يردن الرحمن بضر لاتغن عني شفاعتهم شيئا) هذا وصف لآلهتهم التي يعبُدُونها من دون الله فهي لاتنفع ولا تشفع (ولا ينقذون) من يعبدهم من شر ولا من عذاب (إني إذا لفي ضلال مبين) أي إن اتخذت آلهة من دون الله وعبدت من لا ينفعني شيئا ثم أعلن إيمانه بقوله للرسل (إني آمنت بربكم فاسمعون) أي اشهدوا علي بالإيمان، ولما سمع قومه هذا الكلام قتلوه كما يدل عليه السياق فدخل الجنة كما قال تعالى في حقه (قيل) له (ادخل الجنة) فدخلها و (قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي) أي بغفرانه تعالى لي فما مصدرية (وجعلني من المكرمين) تمنى أن يعلم قومه بما لقيه من عظيم الثواب عساهم يومنون.

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿28﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿29﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿30﴾

المعنى أهلكنا أهل هذه القرية (وما أنزلنا على قومه) أي الرجل المومن الذي قتلوه (من بعده) أي من بعد موته (من جند من السماء) يعنى الملائكة كما يتوهم الكفار ويحرجون النبي بطلب إنزال الملائكة معه (وما كنا منزلين) أي وما فعلنا ذلك من قبل فالأمر أهون مما يظنون (إن كانت إلا صيحة واحدة) وقعت بهم من السماء (فإذا هم خامدون) أي هالكون (ياحسرة على العباد) تذييل

للقصة بما يوجب الاشفاق على الإنسانية التي تجنح إلى الانحراف عن طريق الرشاد والاعراض عمن يدعوها إلى الصلاح، وفي المقدمة دعوة الرسل، ولذلك قال (ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) يكذبونه ويجحدون ما جاء به من الحق.

هذا والقصة في ظاهرها من قصص الأمم والرسل الذين قال الله فيهم «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك» وحملها أكثر المفسرين على أهل أنطاكية وقالوا في الرسل إنهم رسل عيسى إليهم ولكن الرواية بذلك لاتصح وفي العقيدة الإسلامية لا يسمى مبعوثوا الأنبياء رسلا فضلا عن أن خطاب القوم يدل على أنهم كانوا من رسل الله لامن رسل عيسى لقولهم «إن أنتم إلا بشر مثلنا»، وأن أنطاكية كانت أول قرية آمنت بعيسى فلم ينزل بها عذاب، نبه على هذا وما قبله ابن كثير وكذلك أشار إلى الوجه الأول ابن جزي والله أعلم.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31)
وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32)

يَقُولُ تَعَالَى لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ وَسَائِرِ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ **(أَلَمْ يَرَوْا)** أَيْ يَعْلَمُوا **(كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ)** يَعْنِي الْأَجْيَالَ الْعَدِيدَةَ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي هَلَكَتْ وَأَفْضَتْ إِلَى مَصِيرِهَا **(أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ)** أَيْ لَا يَعُودُونَ إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُحَقَّقَةِ الَّتِي لَا يُنَازِعُ فِيهَا إِلَّا بَعْضُ الْفِئَاتِ الضَّالَّةِ كَالْمُعْتَقِدِينَ بِتَنَاسُخِ الْأَرْوَاحِ **(وَإِنْ كُلٌّ)** مِنْ تِلْكَ الْقُرُونِ الْهَالِكَةِ **(لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)** أَيْ وَلَكِنَّهُمْ سَيُبْعَثُونَ فِي الْحَيَاةِ الْأُخْرَى وَيُحْضَرُونَ لِلْحِسَابِ عَمَّا قَدَّمُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَيُجَازَوْنَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ جَزَاءً وِفَاقًا، فَحَقٌّ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرِينَ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِالْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ، وَيُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ وَيَعْمَلُوا لِلْمَعَادِ كَمَا يَعْمَلُونَ لِلْمَعَاشِ.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿33﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿34﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿35﴾

فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ تَذْكِيرٌ لِلْكُفَّارِ بِبَعْضِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ الَّتِي لَوْ تَأَمَّلُوهَا لَكَانَتْ مُوجِبَةً لِلشُّكْرِ وَالإِيمَانِ بِوُجُودِهِ وَبِالْبَعْثِ الَّذِي يُنْكِرُونَهُ، فَإِنَّهُ مِنْ قَبِيلِ بَعْثِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَهَذَا هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (**وَآيَةٌ لَهُمْ**) أَيْ عَلَامَةٌ دَالَّةٌ عَلَى الإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ (**الأَرْضُ الْمَيْتَةُ**) أَيْ الْهَامِدَةُ الْخَالِيَةُ مِنَ النَّبَاتِ (**أَحْيَيْنَاهَا**) بِالْمَطَرِ (**وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا**) كَالْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَمَا يُمَاثِلُهُمَا (**فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ**) لِيَعِيشُوا وَيَحْيَوْا (**وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ**) أَيْ بَسَاتِينَ (**مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**) وَغَيْرِهَا (**وَفَجَّرْنَا فِيهَا**) أَيِ الأَرْضِ لِلشُّرْبِ وَالسَّقْيَا (**مِنَ الْعُيُونِ**) أَيْ عُيُونًا جَارِيَةً بِالْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ وَهِيَ تَشْمَلُ الأَنْهَارَ وَالآبَارَ (**لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ**) أَيِ النَّبَاتِ الْحَاصِلِ بِالْمَاءِ (**وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**) يَعْنِي بِالزِّرَاعَةِ وَالْفِرَاسَةِ، وَقِيلَ مَا نَافِيَةٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ النَّبَاتُ مِنْ عَمَلِهِمْ إِذْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمَا نَبَتَ وَلِذَلِكَ قَالَ : (**أَفَلَا يَشْكُرُونَ**) نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ وَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿36﴾

(**سُبْحَانَ**) تَنْزِيهٌ لِلَّهِ مِمَّا يَعْتَقِدُهُ الْكُفَّارُ وَالْمُشْرِكُونَ فِي حَقِّهِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ (**الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ**) أَيْ أَصْنَافَ الْمَخْلُوقَاتِ (**كُلَّهَا**) مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ وَجَعَلَهَا

أَزْوَاجًا ذَكَراً وَأُنْثَى (مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ) يَعْنِي النَّاسَ. فَهِيَ جَمِيعًا ذُكُورٌ وَإِنَاثٌ تَتَزَاوَجُ وَتَتَوَالَدُ كَمَا فِي الآيَةِ الأُخْرَى (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وَهِيَ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَجْزِ الْخَلْقِ عَنْ إِيجَادِ شَيْءٍ بِاسْتِقْلَالٍ، وَافْتِقَارِهِمْ إِلَى الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّشْأَةِ الأُولَى وَالآخِرَةِ. (وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الأُخْرَى وَالأَكْوَانِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي لَا يَرَوْنَهَا.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿37﴾

وَمِنْ أَدِلَّةِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى وَبَدِيعِ حِكْمَتِهِ مَا أَشَارَ لَهُ بِقَوْلِهِ (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ) الْمُظْلِمُ (نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) أَيْ نُجَرِّدُهُ وَنَنْزِعُهُ مِنْهُ (فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ) أَيْ فَإِذَا النَّاسُ الَّذِينَ كَانُوا مُنْتَشِرِينَ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ يَلُفُّهُمُ اللَّيْلُ وَيَسْكُنُونَ فِي ظُلْمَتِهِ، نَتِيجَةً لِدَوَرَانِ الأَرْضِ حَوْلَ مِحْوَرِهَا فِي مُقَابَلَةِ الشَّمْسِ. فَالْجُزْءُ الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ نُورُهَا يَتَجَلَّى فِيهِ النَّهَارُ، حَتَّى إِذَا اسْتَدْبَرَهَا غَشِيَهُ اللَّيْلُ. وَهَكَذَا دَوَالَيْكَ كُلَّ يَوْمٍ. فَالضِّيَاءُ عَارِضٌ وَالظَّلَامُ هُوَ الأَصْلُ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ النَّهَارُ مُنْسَلِخاً مِنَ اللَّيْلِ كَمَا عَبَّرَتِ الآيَةُ الْكَرِيمَةُ.

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿38﴾

وَهَذِهِ آيَةٌ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ الْخَالِقِ وَعَظِيمِ تَدْبِيرِهِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَالشَّمْسُ) هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ وَاللَّيْلُ أَيْ وَآيَةٌ لَهُمُ الشَّمْسُ (تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ أَيْ لِحَدٍّ مُؤَقَّتٍ تَنْتَهِي إِلَيْهِ مِنْ فَلَكِهَا، وَهُوَ نِهَايَةُ جَرْيِهَا إِلَى أَنْ تَرْجِعَ فِي الْمُنْقَلَبَيْنِ ، الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. وَقِيلَ مُسْتَقَرُّهَا وُقُوفُهَا كُلَّ وَقْتِ زَوَالٍ. بِدَلِيلِ

وُقُوفِ الظِّلِّ حِينَئِذٍ وَقِيلَ مُسْتَقَرُّهَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ حِينَ تَكَوُّرِهَا وَهَذَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَاقِي النُّجُومِ بَلْ عُمُومِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَكِنَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ يُفِيدُ أَنَّهَا مُتَحَرِّكَةٌ لَا سَاكِنَةٌ كَمَا كَانَ يُظَنُّ، وَإِنَّمَا عَرَفَ النَّاسُ هَذَا فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ. وَفِي الصَّحِيحِ إِنَّ مُسْتَقَرَّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ حَيْثُ تَسْجُدُ عِنْدَ كُلِّ غُرُوبٍ، وَهَذَا أَمْرٌ غَيْبِيٌّ لَا يُدْرِكُهُ النَّاسُ وَلَا يُعَارِضُ مَا تَقَرَّرَ فِي الْجُغْرَافِيَا لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْحِكْمَةِ الْغَائِيَةِ مِنْ حَرَكَتِهَا لَا بِالظَّوَاهِرِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى هَذِهِ الْحَرَكَةِ . قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : **(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)**.

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿39﴾

وَآيَةُ الْقَمَرِ هِيَ مِثْلُ آيَةِ الشَّمْسِ تَدُلُّ عَلَى تَدْبِيرٍ إِلَهِيٍّ حَكِيمٍ كَمَا قَالَ تعالى (والقمر قدرنه) أيْ قدرنا سيْرهُ (منازل) ينتقلُ فيها من منزلةٍ إلى مَنْزِلَةٍ حَيْثُ يَبْدُو هِلَالًا إِلَى أَن يَصِيرَ بَدْرًا كَامِلًا ثُمَّ يَعُودُ فَيَتَنَاقَصُ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ سِيرَتِهِ الأولَى وَهُوَ قَوْلُهُ **(حَتَّىٰ عَادَ)** أَيْ صَارَ **(كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)** أَيْ غُصْنِ النَّخْلَةِ الْبَالِي فِي صُفْرَتِهِ وَتَقَوُّسِهِ. وَمِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ مَعْرِفَةُ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ عَلَى مَا جَاءَ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ **«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ»** وَآيَةُ يُونُسَ **«هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ»** وَغَيْرِهِمَا.

لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿40﴾

هٰذِهِ حَقِيقَةٌ تَتَقَرَّرُ بِمُقْتَضَى أَنَّ لِكُلٍّ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فَلَكًا، أَيْ مَدَارًا. يَخُصُّهُ فَحِينَئِذٍ **(لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي)** أَيْ يَصِحُّ **(لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ)** أَيْ تَلْحَقَهُ فَتَجْتَمِعَ مَعَهُ لَيْلًا. لَا سِيَّمَا وَهِيَ تَقْطَعُ الْفَلَكَ فِي سَنَةٍ وَهُوَ يَقْطَعُهُ فِي شَهْرٍ **(وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ)** قَبْلَ انْقِضَائِهِ فَيَأْتِي فِي أَثْنَاءِ النَّهَارِ، نَتِيجَةً لِمَا ذُكِرَ مِنْ تَغَايُرِ فَلَكِهِمَا وَسَيْرِهِمَا **(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)** يَعْنِي الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْأَرْضَ الَّتِي عَلَيْهَا يَتَعَاقَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ. وَذَكَّرَ الضَّمِيرَ وَجَمَعَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هٰذِهِ الْكَوَاكِبِ الثَّلَاثَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْأَرْضِ الْمَفْهُومَةِ مِنَ السِّيَاقِ. وَنَزَّلَهَا مَنْزِلَةَ الْعُقَلَاءِ فَإِنَّ حَرَكَاتِهَا شَبِيهَةٌ بِتَحَرُّكَاتِ الْعُقَلَاءِ. وَفِي الْآيَةِ إِعْجَازٌ عِلْمِيٌّ لِمَا تُثْبِتُهُ مِنْ دَوَرَانٍ لِهٰذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا وَهُوَ مَا لَمْ يَتَحَقَّقْ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا حَدِيثًا.

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (43) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (44)

وَهٰذِهِ آيَةٌ أُخْرَى عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ وَتَسْخِيرِ الْمُكَوَّنَاتِ لَهُمْ. فَإِنَّهُ جَعَلَ الْفُلْكَ وَالسُّفُنَ تَجْرِي عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ بِتَدْبِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ فَتُقَرِّبُ الْأَبْعَادَ وَتَنْقُلُ الْعِبَادَ وَالْأَزْوَادَ بَيْنَ مُخْتَلِفِ الْبِلَادِ وَهُوَ قَوْلُهُ : **(وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)** الْمَمْلُوءِ. وَالْمُرَادُ بِهِ سَفِينَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَيَعْنِي بِذُرِّيَّاتِهِمْ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ تَنَاسَلَتْ مِنْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَوْلَا ذَلِكَ لَهَلَكُوا فِي الطُّوفَانِ وَلَمْ تَبْقَ نَسَمَةٌ حَيَّةٌ مِنَ الْخَلِيقَةِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ **(وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)** أَيْ مِثْلَ سَفِينَةِ نُوحٍ فِي رُكُوبِ الْبَحْرِ وَنَقْلِ الْأَمْتِعَةِ وَالنَّاسِ. فَهِيَ امْتِدَادٌ لِآيَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ **(وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ)** وَنَمْنَعِ الْآيَةَ بِحَجْبِ لُطْفِنَا وَإِيقَافِ تَدْبِيرِنَا **(فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ)** أَيْ فَلَا مُغِيثَ لَهُمْ حِينَئِذٍ

وَلَا مُنْقِذَ كَمَا قَالَ (وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ) كَمَا يَقَعُ أَحْيَانًا بِرَغْمِ الإِحْتِيَاطَاتِ وَالإِسْتِعْدَادَاتِ الْهَائِلَةِ (إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا) اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ تَقْدِيرُهُ: لَكِنْ بِرَحْمَةٍ مِنَّا نُنْجِيكُمْ وَنُسَلِّمُكُمْ مِنَ الْغَرَقِ إِلَى بُلُوغِ أَجَلِكُمْ وَهُوَ مَعْنَى (مَتَاعًا إِلَى حِينٍ).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45)
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46)

الضَّمِيرُ فِي (لَهُمْ) لِلْكُفَّارِ عُمُومًا وَالْمُخَاطَبِينَ مِنْهُمْ وَهُمْ قُرَيْشٌ خُصُوصًا (اتَّقُوا) أَيْ احْذَرُوا (مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ) أَيْ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أَيْ تَنْجُونَ مِنَ الْعَذَابِ بِالإِيمَانِ. وَجَوَابُ إِذَا مَحْذُوفٌ أَيْ أَعْرَضُوا كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ. (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ) تَدُلُّهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ وَصِدْقِ رِسَالَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) مُدْبِرِينَ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا وَلَا يَهْتَدُونَ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (47)

هَذَا مِنْ جُمْلَةِ ضَلَالِهِمْ وَعَدَمِ تَدَبُّرِهِمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ (إِذَا قِيلَ لَهُمْ) يَعْنِي سَمِعُوا مَا فِي الصَّدَقَةِ وَالإِنْفَاقِ عَلَى الْفُقَرَاءِ مِنْ فَضْلٍ وَثَوَابٍ. مِمَّا يُوَجَّهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ. (أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) اسْتِهْزَاءً بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْكَرِيمَةِ وَاحْتِجَاجًا لِبُخْلِهِمْ وَأَنَانِيَّتِهِمْ (أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) وَهَذَا مِنْ تَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ وَإِقْحَامِ أَنْفُسِهِمْ فِي الْمُغَيَّبِ

مِن مَشِيئَةِ اللَّهِ... وَمَا يَزَالُ هَذَا القَوْلُ يُرَدِّدُهُ بَعضُ المَفْتُونِينَ مِنْ ضِعَافِ الإِيمَانِ اقْتِدَاءً بِأَسَاتِذَتِهِمُ المُلْحِدِينَ **(إِن أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)** أَيْ مَا أَنتُمْ بِقَوْلِكُمْ هَذَا لَنَا إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَوَصَفُوا المُؤْمِنِينَ المُهْتَدِينَ بِمَا هُوَ وَصْفٌ لَهُمْ مِنَ الكُفْرِ وَالضَّلَالِ إِمْعَانًا فِي المُخَالَفَةِ وَالعِنَادِ.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿48﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿49﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿50﴾

تُخبِرُ هَذِهِ الآيَةُ عَنِ اسْتِبْعَادِ الكُفَّارِ لِقِيَامِ السَّاعَةِ وَالبَعْثِ وَالحِسَابِ حِينَ يَقُولُونَ **(مَتَىٰ هَذَا الوَعْدُ)** أَيْ فِي أَيِّ وَقْتٍ سَيَكُونُ وَهُوَ سُؤَالٌ يَنِمُّ عَنْ شَكِّهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ يُوَجِّهُونَهُ لِلمُؤْمِنِينَ **(إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)** فَيَقَعُ الجَوَابُ بِمَا يَقْطَعُ لَجَاجَهُمْ وَيَحْسِمُ اعْتِرَاضَهُمْ **(مَا يَنظُرُونَ)** أَيْ يَنتَظِرُونَ **(إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)** وَهِيَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ **(تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)** أَيْ فَجْأَةً عَلَى حِينِ سَيَكُونُونَ فِي حَدِيثٍ وَخِصَامٍ فَلَا يَشْعُرُونَ إِلَّا وَقَدْ ذَهَبَ بِهِمْ وَصُرِعُوا **(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)** أَيْ فَلَا يَمْلِكُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْئًا إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ لَا مَنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُوصِيَ فِي مَالِهِ أَوْ شَأْنِهِ بِأَمْرٍ يَجِدُ وَقْتًا لِذَلِكَ. وَلَا مَنْ كَانَ خَارِجًا غَائِبًا عَنْ أَهْلِهِ بِرَاجِعٍ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ يَهْلِكُونَ فِي مَكَانِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِمْهَالٍ.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿51﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿52﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿53﴾

وَتصَوِّرُ الآيَةُ الْكَرِيمَةُ الْبَعْثَ بَعْدَ الصَّعْقِ كَأَنَّهُ أَمْرٌ وَاقِعٌ مُشَاهَدٌ إِذْ تعَبِّرُ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) وَهِيَ نَفْخَةُ الإِحْيَاءِ وَالْبَعْثِ مِنَ الْقُبُورِ وَالصُّورُ الْقَرْنُ الَّذِي يُنفَخُ فِيهِ وَهُوَ هُنَا عَلَى قَدْرِ الْحَدَثِ الْعَظِيمِ، وَالنَّفْخُ يَقَعُ مِنَ الْمَلَكِ الْمُكَلَّفِ بِذَلِكَ.. (فَإِذَا هُمْ) يَعْنِي الْمَقْبُورِينَ عُمُومًا (مِنَ الأَجْدَاثِ) أَيْ الْقُبُورِ (إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ) أَيْ يَخْرُجُونَ كَمَا يَخْرُجُ النَّسْلُ مِنَ الأَرْحَامِ (وَقَالُوا) يَعْنِي الْكُفَّارُ (يَا وَيْلَنَا) أَيْ يَا هَلاَكَنَا. فَأَوَّلُ مَا بِهِ يَنْطِقُونَ التَّأَسُّفُ وَالنَّدَمُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ (مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا) أَيِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا دُفِنُوا فِيهِ (هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) يَقُولُونَ ذَلِكَ مُقِرِّينَ بِمَا كَانُوا بِهِ كَافِرِينَ. وَقِيلَ إِنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ مِن قِبَلِ الْمَلاَئِكَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ (إِنْ كَانَتِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ) يَعْنِي أَنَّ قَضِيَّةَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ الَّتِي تُمَارُونَ فِيهَا لَيْسَتْ (إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً) كَمَا تَقَدَّمَ (فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ) أَيْ عُمُومُ الْمَوْتَى (لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ) أَيْ حَاضِرُونَ عِنْدَنَا يَنْتَظِرُونَ مَا بِهِ وُعِدُوا فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ».

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿54﴾ إِنَّ أَصْحَـٰبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿55﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿56﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿57﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿58﴾ وَامْتَـٰزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿59﴾

لَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَحْصُلُ لِلْكُفَّارِ مِنَ الْجَزَعِ عِنْدَ الْبَعْثِ وَمُوَاجَهَةِ الْمَصِيرِ الَّذِي كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِمَوْقِفِ الْعَدْلِ الَّذِي يَشْمَلُ الْخَلْقَ جَمِيعًا،

فقالَ ﴿فالْيَوم﴾ أيْ يَوْمَ القِيامَةِ ﴿لا تُظْلَمُ نفسٌ شيْئًا﴾ أيْ. لاَ يُعامَلُ أحد بظلْمٍ مَهْمَا كانَ شأنُهُ ﴿ولاَ تجزونَ﴾ مَعْشَرَ العِبادِ ﴿إلاَّ ما كُنتُمْ تعْمَلُون﴾ في الدنيا إنْ خيْراً فخيْرٌ وإنْ شرًّا فشرٌّ، فهِيَ مِثْلُ قوْلِهِ في الآيَةِ الأُخْرَى : ﴿ونضع الموازِينَ القسطَ ليَوْمِ القِيامَةِ فلا تُظلَمُ نفْسٌ شيْئًا، وإن كانَ مثقالَ حَبَّةٍ مِنْ خرْدَلٍ أتيْنَا بِها وكفى بِنا حاسِبينَ﴾ ويَقولُ تعالَى ترْغِيبًا في الإيمانِ الذي يلْقى أصْحابُهُ الجزاءَ الحسَنَ وترْغيمًا للْكفَّارِ الذينَ يعامَلونَ بعكْسِ ذلكَ ﴿إنَّ أصْحابَ الجنَّةِ اليَوْمَ﴾ أيْ في اليَوْمِ المَذْكورِ ﴿في شُغلٍ فاكِهُون﴾ أيْ مُتفكِّهُونَ بِما يشغلُهُمْ عنِ النَّارِ والعذابِ وما أهَمَّ الكفَّارَ منْ سُوءِ المَصِيرِ كما جاءَ في الآيَةِ الأُخْرَى : ﴿إنَّ الذينَ سبقَتْ لهُمْ مِنَّا الحُسْنى أولَئِكَ عنْها (أيْ عن النَّارِ) مُبْعَدُونَ، لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وهُمْ فِيما اشْتهَتْ أنفُسُهُمْ خالِدونَ، لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزَعُ الأكْبرُ وتتلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ توعَدُونَ﴾ ﴿هُمْ وأزْواجُهُمْ في ظِلالٍ﴾ يَعْنِي ظِلالَ الجنَّةِ ﴿على الأرائِكِ﴾ جَمْعُ أرِيكَةٍ وهِيَ مَقاعِدُ مُرِيحَةٌ مِثْلُ التَّخُوتِ ﴿مُتَّكِئُون﴾ مُضْطَجِعُونَ ﴿لهُمْ فِيها فاكِهَةٌ﴾ يَعْنِي مِنْ كُلِّ نوْعٍ لاَ مَقطُوعَةٍ ولاَ مَمْنُوعَةٍ كما في سُورَةِ الواقِعَةِ ﴿ولهُمْ مَّا يدَّعُونَ﴾ أيْ ما يَتمَنَّوْنَ ويَطْلُبُونَ، كُلُّهُ مَبْذُولٌ لهُمْ حاضِرٌ لدَيْهِمْ ﴿سلامٌ قوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أيْ ويُلَقَّوْنَ تحِيَّةً مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ هِيَ سَلامٌ دائِمٌ ونعِيمٌ مُقِيمٌ كما جاءَ في الحَدِيثِ ﴿وامْتازُوا اليَوْمَ أيُّها المُجْرِمُونَ﴾ أيْ ويُقالُ لِلْكفَّارِ في ذلِكَ اليَوْمِ انفرِدُوا عَنِ المُؤْمِنِينَ وكُونُوا على حِدَةٍ مَّعْزولِينَ.

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿60﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿61﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿62﴾

هذا تقريعٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِلْكُفَّارِ الَّذِينَ يَعْصُونَهُ وَيُطِيعُونَ الشَّيْطَانَ مع أَنَّهُ أكبرُ عدُوٍّ لهمْ كَمَا قالَ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ إستفهامٌ على سبيلِ الإِنْكارِ والتَّوبيخِ وَالتَّقرِيعِ أَيْ أَلَمْ آمُرْكُمْ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِي وَرُسُلِي ﴿يَا بَنِي آدَمَ أن لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أَيْ لاَ تُطِيعُوهُ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تَعْلِيلٌ لِعَدَمِ طاعَتِهِ لِأَنَّ العَدُوَّ لاَ يَبْغِي لِعَدُوِّهِ إِلاَّ الشَّرَّ ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي﴾ بالتَّوحِيدِ وَالطَّاعَةِ ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لَوْ أَنكُمْ إِتَّبَعْتُمُوهُ لَنَجَوْتُم مِّنَ الْعَذَابِ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ﴾ أَيْ خلقا ﴿كَثِيراً﴾ فَلَمْ تَتَعِظُوا بِذَلِكَ وَتَعْتَبِرُوا ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ أَفَمَا كَانَ لَكُمْ عَقلٌ حِينَ قَدَّمْتُمْ طَاعَةَ الشَّيْطَانِ عَلَى طَاعَةِ الْخَالِقِ، فَفِيهِ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَإِلْزَامُهُمْ بِنَتِيجَةِ مَا عِمِلُوا.

هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿63﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿64﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿65﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿66﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿67﴾

يَعْنِي وَيُقَالُ لَهُمْ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بِهَا وَيُحَذِّرُكُمُ الله مِنْهَا وَلكِنَّكُم كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ أَيْ ذُوقوا حَرَّهَا الآنَ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أَيْ بِسَبَبِ كُفرِكُم ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ أَيْ نَمْنَعُهُم مِّنَ الْكَلاَمِ ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُم بِمَا عَمِلُوا وَتَظْهَرُ لَهُمْ قُدْرَةُ اللهِ فِي إِسْكَاتِ آلَةِ النُّطْقِ وَهِيَ اللِّسَانُ وَإِنطَاقُ الأَعْضَاءِ الَّتِي لَمْ يَكُنِ النُّطْقُ مِنْ شَأْنِهَا، وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ

كُلَّ شَيْءٍ﴾ وَيَقَعُ هٰذَا بَعْدَ أَنْ تَشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ فَيُنْكِرُونَ مَا شَهِدَتْ بِهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : **﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾** هٰذَا خِطَابٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، فَمَعْنَاهُ لَوْلاَ حِلْمُنَا وَإِمْهَالُنَا لَهُمْ لَأَعْمَيْنَاهُمْ، فَالطَّمْسُ عَلَى الأَعْيُنِ هُوَ الْعَمَى **﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾** أَيِ ابْتَدَرُوا الطَّرِيقَ **﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾** أَيْ فَمِنْ أَيْنَ لَهُمْ إِذَنْ أَنْ يَرَوُا الطَّرِيقَ، كَذٰلِكَ هُمْ عُمْيُ الْبَصِيرَةِ فَلاَ يَرَوْنَ سَبِيلَ الرَّشَادِ **﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾** قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ أَوْ حِجَارَةً كَمَا فَعَلْنَا بِالْمُكَذِّبِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ **﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾** أَيْ لَفَعَلْنَا ذٰلِكَ بِهِمْ عَلَى مَا يَكُونُونَ عَلَيْهِ فِي مَنَازِلِهِمْ **﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾** بَعْدَهَا **﴿مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُونَ﴾** أَيْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَهَابٍ وَلاَ مَجِيءٍ.

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿68﴾

الْمَعْنَى أَنَّ التَّعْمِيرَ أَيْ إِطَالَةَ الْعُمْرِ يَرُدُّ الإِنْسَانَ عَلَى عَقِبِهِ فَيُبَدَّلُ بِالْقُوَّةِ ضُعْفاً وَبِالشَّبَابِ هَرَماً كَمَا جَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : **﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفاً وَشَيْبَةً﴾** وَهٰذَا هُوَ أَرْذَلُ الْعُمْرِ الَّذِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَعِيذُ بِاللّٰهِ مِنْهُ وَقَالَ فِيهِ تَعَالَى : **﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾** وَمُنَاسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا ظَاهِرَةٌ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا كَالْمَثَلِ لِتَقْرِيبِ مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ مِنَ الطَّمْسِ وَالْمَسْخِ فَإِنَّ مَنْ يُعَمِّرُ الْمَخْلُوقَ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى حَالَةِ الاِنْتِكَاسِ قَادِرٌ عَلَى ذٰلِكَ. وَلِهٰذَا قَالَ : **﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾**.

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿69﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿70﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَدًا عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ قَالُوا فِي النَّبِيِّ ﷺ، إِنَّهُ شَاعِرٌ، وَإِنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الشِّعْرِ ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ**﴾ أَيْ مُحَمَّداً ﴿**الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾ أَيْ وَمَا يَلِيقُ بِهِ، لِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَدَاعِيَةٌ إِلَى دِينِهِ الْحَقِّ، فَلاَ يُنَاسِبُهُ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا يَهِيمُ فِي أَوْدِيَةِ الْخَيَالِ وَيَقُولُ مَا يَصِحُّ وَمَا لاَ يَصِحُّ. ﴿**إِنْ هُوَ**﴾ أَيِ الْقُرْآنُ ﴿**إِلاَّ ذِكْرٌ**﴾ أَيْ تَذْكِيرٌ لِلنَّاسِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِّن مَّعْرِفَةِ الْخَالِقِ وَسُبُلِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ وَالتَّقْوَى وَالْعَمَلِ النَّافِعِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ ﴿**وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ**﴾ أَيْ كِتَابٌ مُّبِينٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ مِّمَّا فِيهِ صَلاَحُ الْعِبَادِ ﴿**لِّتُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا**﴾ أَيْ تُعْلِمَ بِهِ يَامُحَمَّدُ وَقُرِئَ لِيُنذِرَ بِالْيَاءِ وَالضَّمِيرُ يَرْجِعُ حِينَئِذٍ لِّلْقُرْآنِ ﴿**مَن كَانَ حَيًّا**﴾ أَيْ حَيَّ الْقَلْبِ فَهُوَ الَّذِي يَنْفَعُ فِيهِ الْإِنْذَارُ وَالتَّذْكِيرُ وَأَمَّا مَيِّتُ الْقَلْبِ فَهُوَ لاَ يَفْهَمُ خِطَاباً وَلاَ يَعْنِي بِتَفَهُّمِهِ وَمَوْتَى الْقُلُوبِ هُمُ الْمَقْصُودُونَ بِقَوْلِهِ ﴿**وَيَحِقَّ الْقَوْلُ**﴾ أَيْ وَتَقُومَ الْحُجَّةُ ﴿**عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿71﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿72﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿73﴾

يُذَكِّرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُقَرِّرُ عِبَادَهُ فِي سِيَاقِ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْجَاحِدِينَ مِنْهُمْ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِم مِّنْ هٰذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الدَّاجِنَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ جُزْءاً مِّنْ حَيَاتِهِمْ لاَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهَا بِحَالٍ فَيَقُولُ ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم**﴾ أَيَ مِنْ أَجْلِهِمْ ﴿**مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا**﴾ أَيْ صَنَعَتْهُ وَأَبْدَعَتْهُ مِثْلَ عَمَلِنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى خَلْقِنَا إِيَّاهُمْ ﴿**أَنْعَاماً**﴾ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿**فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**﴾ أَيْ مُتَصَرِّفُونَ فِيهَا كَمَا يَشَاءُونَ مَعَ أَنَّهَا وَإِيَّاهُم مِّنْ خَلْقِنَا وَإِنْشَائِنَا فَإِخْضَاعُهَا لَهُمْ هُوَ مِنْ تَفَضُّلِنَا عَلَيْهِمْ ﴿**وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ**﴾ أَيْ سَخَّرْنَاهَا ﴿**فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ**﴾ بِفَتْحِ الرَّاءِ أَيْ مَرْكُوبُهُمْ

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أَيْ مِنْ لَحْمِهَا ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كَالْجِلْدِ وَالصُّوفِ ﴿وَمَشَارِبُ﴾ مِنْ لَبَنِهَا جَمْعُ مَشْرَبٍ بِمَعْنَى شِرْبٍ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الْمُنْعِمَ الْمُتَكَرِّمَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَيَحْمَدُونَهُ وَيَعْبُدُونَهُ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76)

الضَّمِيرُ فِي ﴿اتَّخَذُوا﴾ لِلْكُفَّارِ أَيْ جَعَلُوا لَهُمْ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أَصْنَامًا أَوْ كَوَاكِبَ أَوْ بَشَرًا أَوْ حَيَوَانَاتٍ يَسْتَنْصِرُونَ بِهَا كَمَا قَالَ ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ فَهُمْ أَعْجَزُ وَأَضْعَفُ مِنْ أَنْ يَنْصُرُوا أَنْفُسَهُمْ فَكَيْفَ بِالْغَيْرِ ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ أَيْ وَسَيُحْضَرُونَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَدْخُلُونَ النَّارَ إِذْلَالًا لَهُمْ وَتَحْقِيرًا كَمَا يَحْضُرُ الْجُنُودُ الْمَقْهُورُونَ فِي الْحَرْبِ مَعَ رُؤَسَائِهِمْ وَالْمُسْتَنْصِرِينَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا خَاضِعِينَ صَاغِرِينَ ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، تَسْلِيَةً لَهُ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ وَمَا يُجَاهِرُونَ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مَا يُسِرُّونَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَكَرَامَةِ الرَّسُولِ وَمَا يُعْلِنُونَهُ مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ.

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)

هٰذِهِ الْآيَاتُ وَمَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ السُّورَةِ تَتَضَمَّنُ أَدِلَّةً عَلَى الْبَعْثِ وَالْحَشْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، وَالرَّدَّ عَلَى مُنْكِرِي ذٰلِكَ مِنَ الْكُفَّارِ، وَأَوَّلُهَا التَّعْجِيبُ مِنَ الْإِنْسَانِ الَّذِي أَصْلُهُ نُطْفَةٌ مَدِرَةٌ كَيْفَ يَطْغَى حَتَّى يَصِيرَ يُجَادِلُ فِي قُدْرَةِ اللّٰهِ تَعَالَى عَلَى إِنْشَائِهِ مَرَّةً أُخْرَى وَقَدْ أَنْشَأَهُ قَبْلُ مِنَ الْعَدَمِ فَقَوْلُهُ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ يَعْنِي أَلَا يُفَكِّرُ ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ أَوَّلًا ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أَيْ قَطْرَةٍ مِنْ مَنِيٍّ، وَهِيَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى بِمَاءٍ مَهِينٍ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ يَعْنِي فَلَمْ يَنْشَبْ أَنْ أَصْبَحَ يُجَادِلُ فِي خَلْقِهِ وَبَعْثِهِ، وَجِدَالُهُ هٰذَا فِي الْحَقِيقَةِ يَتَوَجَّهُ إِلَى قُدْرَةِ اللّٰهِ وَنَفْيِ صَلَاحِيَتِهَا لِإِيجَادِهِ مَرَّةً أُخْرَى. ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أَيْ جَاءَ بِكَلَامٍ شِبْهِ الْمَثَلِ فِي قِيَاسِ قُدْرَةِ الْخَالِقِ عَلَى قُدْرَتِهِ هُوَ حِينَ قَالَ ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أَيْ بَالِيَةٌ مُتَفَتِّتَةٌ، وَهٰذَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا قَالَهُ الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَأَتَى بِعَظْمٍ رَمِيمٍ : يَامُحَمَّدُ مَنْ يُحْيِي هٰذَا ؟ «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» فَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِبَدْءِ الْخَلْقِ عَلَى إِعَادَتِهِ كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أَيْ يَعْلَمُ جَمِيعَ وُجُوهِ الْخَلْقِ وَبَدْءَ الْحَيَاةِ وَإِعَادَتَهَا مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ مِنْهُ شَيْئًا فَحَقُّكُمْ أَنْ تُقِرُّوا بِالْعَجْزِ وَقِلَّةِ الْمَعْرِفَةِ وَتُسَلِّمُوا لِخَالِقِ الْقُوَى وَالْقُدَرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿80﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿81﴾

ضَرَبَ اللّٰهُ لِلْكُفَّارِ هٰذَا الْمَثَلَ عَلَى وُقُوعِ الْبَعْثِ يُنَاقِضُ مَثَلَهُمُ الَّذِي ظَنُّوا أَنَّهُ حُجَّةٌ لَهُمْ فِي نَفْيِ الْبَعْثِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ أَمْرٍ مَحْسُوسٍ وَمَعْرُوفٍ لَدَيْهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهُ وَلَا الْجِدَالَ فِيهِ، وَبَيَانُهُ كَمَا قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ أَنَّ الْكُفَّارَ وَالطَّبَائِعِيِّينَ قَالُوا طَبْعُ الْمَوْتِ يُضَادُّ طَبْعَ الْحَيَاةِ فَكَيْفَ تَصِيرُ الْعِظَامُ حَيَّةً فَأَقَامَ

اَللّٰهُ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ الْمُمْتَلِئِ مَاءً مَعَ مُضَادَّةِ طَبْعِ الْمَاءِ لِلنَّارِ، وَيَعْنِي بِالشَّجَرِ زِنَادَ الْعَرَبِ وَهُوَ شَجَرُ الْمَرْخِ وَالْعَفَارِ فَإِنَّهُ يُقْطَعُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غُصْنٌ أَخْضَرُ يَقْطُرُ مِنْهُ الْمَاءُ فَيُسْحَقُ الْمَرْخُ عَلَى الْعَفَارِ فَتَنْقَدِحُ النَّارُ بَيْنَهُمَا، عَلَى أَنَّ هٰذَا لَيْسَ خَاصًّا بِهٰذَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ إِلاَّ أَنَّهُ فِيهِمَا أَقْوَى. وَتَقُولُ الْعَرَبُ فِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ وَاسْتَمْجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ فَفِي هٰذَا الْمَثَلِ الْمُنْتَزَعِ مِنْ وَاقِعِ الْحَيَاةِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ عِنْدَ الْعَرَبِ الَّذِي يَلْجَأُ إِلَيْهِ يَوْمِيًّا كُلُّ مَنْ لَيْسَ مَعَهُ زِنَادٌ يُوقِدُ بِهِ النَّارَ رَدٌّ عَلَى إِشْكَالِيَّةِ الْعَظْمِ الْمُتَفَتِّتِ بِأَعْجَبَ مِنْهُ وَأَغْرَبَ قَالَ تَعَالَى : ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُم**﴾ يَعْنِي وَلِلنَّاسِ كَافَّةً ﴿**مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً**﴾ مَعَ اخْتِلاَفِ الطَّبِيعَتَيْنِ ﴿**فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**﴾ تَقْدَحُونَ وَتُورُونَ النَّارَ مِنْ سِقْطِ هٰذَا الْقَدْحِ ﴿**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم**﴾ أَيْ مِنَ الأَنَاسِيِّ وَالْبَشَرِ، فَهٰذَا دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى إِمْكَانِ الْبَعْثِ، فَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، لِأَنَّهَا أَعْظَمُ جِرْمًا وَأَكْبَرُ شَأْنًا وَمَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ أَجْسَادَ بَنِي آدَمَ بَعْدَ فَنَائِهَا كَيْفَ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ خَلْقَهُمْ وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ. وَأَجَابَ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ عَلَى هٰذَا السُّؤَالِ فَقَالَ : ﴿**بَلَى**﴾ أَيْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى ذٰلِكَ ﴿**وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ**﴾ الْمَوْصُوفُ بِكَثْرَةِ الْخَلْقِ وَالْعِلْمِ الْوَاسِعِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

ثُمَّ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى أَنَّ الأَمْرَ أَهْوَنُ مِنَ التَّصَوُّرَاتِ الَّتِي تَخْطُرُ فِي بَالِ الْمُكَذِّبِينَ الْجَاحِدِينَ، فَالْخَلْقُ مِنَ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لاَ يَسْتَلْزِمُ أَيَّ صُعُوبَةٍ وَلاَ

مَشَقَّةٍ فَأَحْرَى الاِسْتِحَالَةَ وَعَدَمَ الإِمْكَانِ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِحَرْفَيْنِ اثْنَيْنِ هُمَا كُنْ كَمَا قَالَ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ أَيْ شَأْنُهُ إِذَا تَعَلَّقَتْ إِرَادَتُهُ بِإِيجَادِ شَيْءٍ ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أَيْ فَيَنْجَزُ وَيُوجَدُ كَائِنًا مَا كَانَ ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أَيْ تَنْزِيهًا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَّا يَقُولُ الْكَافِرُونَ وَمَا يَصِفُونَهُ بِهِ مِنَ الْعَجْزِ وَهُوَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ أَيِ الْقُدْرَةُ التَّامَّةُ عَلَى الأَشْيَاءِ إِيجَادًا وَإِعْدَامًا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ تُرَدُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.